عادل سمارة

حول علاقة الاقتصاد بالتراث الشعبي

ان تراث الشعوب هو المعبر عن سجيتها ومزاياها الصميمية والتي ، على الرغم من تشابهها بين مختلف الشعوب ، الا ان لهـا سمات معينة تبرز بشكل اكثر وضوحا لدى شعب معين منه لدى شعوب أخرى .

ويشكل الاقتصاد عاملا اساسياً وحاسماً في تكوين وتبديل هذا التراث ، بمعنى ان التراث يخضع لتأثيرات وسائل الانتاج المتغيرة والمتطورة ، ويعزو الكثيرون تأثير الاقتصاد هذا الى البيئة والمناخ ، وهذا ناتج عن افتقارهم الى النظرة العميقة والمنهاجية في تحليل التركيبة الاجتماعية للمجتمعات البشرية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فالاقتصاد هو الارضية الاساسية والمحرك الاول لحياة الشعوب حيث يؤثر نمط الانتاج وعلاقاته في تفكير الجماهير ومسلكياتها الطبقية التي تمتد بدورها الى تراثها الشعبي المتراكم عبر أجيال عديدة . ولا غنى عن القول في هذا المعرض أن التراث الشعبي منوط بالارض كقاعدة انتاج وبالاحرى كاطار عريض تتواجد في أحشائه الطبقات الاجتماعية ، ولذلك سينحصر هذا المقال في معالجة الاقتصاد من خلال موضوعية الارض فقط .

قبل ظهور الآلة كوسيلة انتاج متطورة تخلق بدورها علاقات انتاج وتركيبة اجتماعية مختلفة عن تلك التي تتواجد في المجتمع الزراعي الذي يعتمد في انتاجه على الارض ، كانت الارض بحد ذاتها وسيلة الانتاج الوحيدة ، وبالتالي القيمة الاساسية في حياة الطبقات التي تعتمد عليها في معيشتها ، كما وتضفي الارض على مالكها صفات القوي والنشيط والغيور والوطني ، ويرتد مفهوم الارض كقيمة ايضاً الى أساس اكثر عمقاً ، وهو كون الارض مخزنا معطاعلما يحتاجه الانسان في وجوده وبقائه وتطوره ، وهكذا تلعب الارض كقاعدة انتاجية دورا اساسياً في تراث الشعوب .

ان النظر بطريقة علمية الى علاقة الطبقات التي تعيش على الزراعة بالارض يوصلنا الى ان الفلاح البسيط يشعر بأن هناك امتدادا عاطفياً بينه وبين الارض ، وهو لا يفلسف علاقته بها كأن يقول مثلا (انها مصدر السلع ووسيلة الانتاج) ، بل ينظر اليها كقيمة مقدسة لا داعي لتفسير اسباب قدسيتها ، اقتناعاً منه بأن دورها شديد الوضوح ولا حاجة لشرحه . ولذلك فانه

بالنظر لأهمية الارض اقتصادياً في نظر الفلاح فهو ينظر الى ملكيتها بتقدير شديد ، ويرى ان من يستطيع حيازة أوسع مساحة ممكنة من الارض هو أجدر الناس بالاحترام ، وهذا يبين أن للملكية الخاصة تقديرا معيناً في نظر الفلاح .

ويتجلى الفولكلور الفلسطيني من حيث أساسه الاقتصادي في الكثير من مسلكيات الفلاحين في علاقاتهم العامة وأخصها علاقات الانتاج حيث تلمس الروح التعاونية والنشاط الجماعي وهذا النشاط هو مسلك يمكن ان يخدم كأرضية مناسبة لتطبيق مبدأ الملكية العامة اذا ما وجدت الاداة المنظمة والقادرة على تطوير هذا المسلك : ففي حراثة الارض او حصاد الزرع يقوم الفلاحون الذين انهوا حصادهم مبكرا بمساعدة اولئك الذين لم ينهوه بعد ، وبالطبع بدون اي مقابل سوى وجبة الطعام التي تقدم بشكل مركز في ذلك اليوم ، ويخلق هذا المسلك جوا من الجماعية . ولا يقتصر هذا الجو على بذل المجهود الجسماني ، بل يدخل الجانب العاطفي فيه حيث تردد تراويد واغاني شعبية كثيرة تستثير همم الشباب لكي ينشطوا في العمل . واستثارة الهمم هذه تقوم على اساسين ، هما ، اشباع الحاجة العاطفية ، وتحقيق مكسب انتاجي من حيث زيادة عدد الواحدات التي ينتجها الفرد نظرا للدفعة العاطفية الجميلة التي يستمدها من ذلك الجو ، ويذهب الفلاحون بعيدا وبشكل رومانسي مع هذا الجو ، حيث ينسجون قصص الحب والعشق بين الشباب والفتيات ، ويبنونها بالطبع على قيم انتاجية حيث يضعون أساس القصة اعجاب الفتاة بنشاط الشاب وقدرته العظيمة على العمل ، مثل قصة (خليل أبو دحيلة) (١) . وينطلقون في هذا من ايمان الفلاح بمفاهيم الرجولة والفحولة ، وهذه المفاهيم مرتبطة بالحياة الخشنة التي يعيشها الفلاحون وبالتالي ما تتطلبه هذه الحياة من قدرة على العمل المتواصل .

ويمارس الفلاحون الفلاحة المشتركة حيث يتعاون اثنان أو اكثر في حراثة قطعة واسعة من الارض وبذرها وحصادها واقتسام محصولها بالتساوي ، وكذلك الاشتراك في ضمان كروم الزيتون . وعصر الزيتون كذلك — وهم يعطون هذه الشجرة قيمة كبيرة لدرجة التغزل فيها كشجرة ذات جذور ضاربة في التاريخ الشعبي ، وهذا التعلق بشجرة الزيتون راجع الى ما تقدمه من انتاج كان في السابق هو العماد الاول في حياة الفلاح — وتشترك أكثر من أسرة قروية

(١) قصة شعبية مضمونها ان شابا لم يجد الطريق الى زواج فتاة يحبها الا بمساعدة اهلها في جني حصادهم ، ونظراً لقدرته العظيمة على العمل فقد احبته الفتاة وخاصة حيث كان يغني ملحمة شعبية طويلة خلال الحصاد .

في «طابون» واحد ، ولفترات طويلة من الزمن وربما تتجاوز العشرين عاما ، ان مسلكاً كهذا وان لم يكن ذا انتاجية اقتصادية كبيرة ، الا ان له مدلولات رائعة على تقبل الفلاح للعمل المشترك والتعاوني .

وللفلاح الفلسطيني اهتمام خاص بالاماكن العامة كالارض المشاع والارض (السبيل) (١) والبرك ، فكثيرا ما يقوم الفلاحون تطوعا بالعناية بهذه الاماكن ، ويمكن ان يرد هذا الى عدم وجودهيئات عامة للاشراف على تلك المرافق ، والى ان الفلاح يستفيد من مثل هذه المرافق ، وكثيرا ما يقوم الذين ينهون اعمالهم الزراعية مبكرا بمساعدة الآخرين .

وهناك مجال آخر يتجسد في وجود المضافة كمكان للالتقاء ، وللأكل المشترك وفيها ايضايبحث اهل القريةمختلف مشاكلهم وعليه فهي تمثل مكانا للتفاعل الايجابي بين الناس .

ومادامتالارض كقاعدة للانتاج المادي،ذات تأثيرومفاعيل كبيرة على التراثفان المجتمعات التي تسكن مناطق خصبة اقتصاديا تحظى بظرف ملائم لوجود فلكلور عميق نظرا للتحشد السكاني الذي يتواجد في المنطقة الخصبة ولا ستمرار هذا التواجد بالطبع، فالارض القاحلة لا تتحمل بقاء سكانها في مكان واحد ولا تمثل القاعدة الانتاجيةالقادرة على استيعاب اعداد ضخمة من الناس وبشكل مستمر ، ولذا يتنقل سكانها من مكان الى آخر ، ويقود هذا بدوره الى خلق تراث شعبي اقلعمقا مما هو في الحالة الاولى ولذلك نجد البدوالرحل والغجر والنور ذوي تراث اقل عمقا من الشعوب المتوطنة بشكل دائم .

ان للرابطة القولية في المجتمع الواحد اهميةخاصةفي نقلالفلكلور من جيل الى جيل وبالتالي المحافظة عليه ، ولذلك فقد حملت هذهالرابطةمعهاتعبيرات غنائيةفلكلورية ذات مدلولات عميقة فيما يتعلق بالارض كقاعدة لانتاج الخيرات المادية فوصلتنا هذه المقولات الاقتصادية على محمول فني مبسط حيث تقول النساء :

ابلادنا يا بلادنا يم الشجر لخظر
في بـــلاد الغرايب كيف نتطـــور

(١) السبيل : — ارض او شجرة او أي شيءمنتج يتنازل مالكه عنه للصالح العام والمفردة مأخوذة من السابلة اي من يمرون في الطريق .

ابلادنا يا بلادنا يم الشجر والهيش
في بلاد الغرايب كيف بدنا نعيشـــ

ان في مثل هذه الابيات عمقا عاطفيا يدل على الالم واللوعة ، وربما كان من النواحي الايجابية في الفلكلور كونه يمس العاطفة ويحركها . وكثيرا ما يقولون (اللي ما اله ارض ما اله عرض) ومعروف بالطبع ما للعرض في الريف من تقدير واهمية وحساسية خاصة ، كما ويحافظ الفلاح جدا على ما ورثه عن والده من ارض لانها تعني بالنسبة اليه امرين وهما الارتباط المصلحي ، والارتباط العاطفي وخاصة وصايا الآباء لأبنائهم فيما يتعلق بالارض، ويقولونايضا (اتعب على ارضك تتعب عليك) ويضرب الفلاحون مثلا بمن لايعمل حيث ينعتونه بالكثير من الصفات السلبية فيقولون (فلان مثل هامل الكلاب) ، وهذه اشارة الى احترام العمل في تراث الشعب الفلسطيني وعندما يترفع الانسان عن العمل في الارض ويهملها ، فان مردودها يتضاءل ، ويهتز بالتالي وضع مالكهاالمالي فيقول الفلاحون نهكما عليه (اكبر على رزقك يكبر عليك). تشير هذه الامثال الى الاهمية التي يوليها الفلاح للارض والى الاسباب الكامنة وراء هذه الامثال . ويحظى الفلاح المنتج باحترام وتقدير خاصين من قبل الآخرين حيث يقولون (فلان فلاح) (مع تأكيد على لفظ هذه الكلمة) بمعنى انه قدير وشديد ومحترف. ويقولون عن الفلاح الكسول (فلان مش فلاح) وكلا القولين السلبي والايجابي، يحملان مقولة اقتصادية اساسية تعني وتخدم مسألة العمل وترفع من أهميته في حياة الانسان ، ومن المألوف في القرية ان يشيدوا بكل من يشترى ارضا جديدة ويضيفها الى ما في حوزته ، فهم يعتبرونه نشيطا ويستحق هـــذه الارض والتي هي امتياز اجتماعي ضخم ، كما ويتباهى الشخص نفسه بكثرة ارضه فيقول (انا ارضي على الاربعة اركان) ، ويقولون ايضا في معرض التهكم على من لا يملك ارضا (فلان فش اله مطرح قبر)، وبغض النظر عن ان هذا القول تكريس وتجميل للملكية الخاصة الا ان له مدلولا آخر هو حب التمسك بالارض اضف الى هذا ان الفلاحين كثيرا ما يفخرون بارض القرية ككل عندما تكون واسعة وذات انتاج غزير ، وحتى يفتخرون بإنتاج المنطقة وفي النهاية بخصب الوطن ككل .

يرتبط الفلكلور بالاقتصاد الزراعي في أساسه ولذا تجدر الاشارة الى مدى تواجد البطالة في هذا النمط الانتاجي ، حيث تعاني الارياف من البطالة المقنعة ، وهذه البطالة تشكل فجوة او كما يسمونها مسامات عمل لكي يمارس فيها الفلاحون حياتهم العاطفية وهذا يعني انها فرصة للتمتع بالكثير من أوجه التراث الشعبي ، في حين قد لا يتسنى مثل هذا المجال للعامل في المجتمع الصناعي ، حيث تقل البطالة من ناحية ويقل الاعتماد على الغير من ناحية ثانية و تتقلص أيضا فرصة الحرية في اختيار وقت العمل ووقت الراحة نظرا لان العامل الصناعي شخص مستغل من قبل آخر حيث يعمل طبقا لتعاقد محدد .

وهكذا فان المسلك الفلكلوري المرتبط بحبنا للأرض يثير في الذهن مقولة حياتية متعلقة بنفس الموضوع وهي الارض والالتحام بها ، ولعل هذه المقولة وتجسيدها عملياً مسألة ضرورية جدا للفلاحين على الاقل ضمن الظروف الحالية ، ولا بد من تأصيل قضية مركزية هنا وهي ان انفصام العلاقة بين الارض والفلاح يؤدي بالضرورة الى تمييع الفلكلور وانتهاء الارتباط بالفلكلور المتوارث . ويشعر الجميع بالجهد الذي تبذله مختلف الشعوب حيال احياء تراثها الشعبي وهذا التوجه لم يعد نزعة رومانسية بحتة بل هو ايضا توجه الشعوب نحو الحفاظ على كياناتها القومية .